

البيئة في الفقه الإسلامي وقاية وتنمية

بحث مقدم إلى:

المؤتمر العلمي السنوي الخامس بعنوان

(القانون ... والبيئة)

المزمع إقامته خلال الفترة ٢٣ - ٢٤ إبريل ٢٠١٨م

في رحاب كلية الحقوق - جامعة طنطا

مقدم البحث :

الدكتور / يوسف حمادة ربيع

دكتوراه في القانون العام

المقدمة

اهتم الإسلام بالبيئة اهتماما كبيرا وكان له السبق في وضع القواعد والتشريعات التي تضمن سلامتها واستقرارها وجمالها، وتحافظ على مواردها المختلفة، وهذا ينسجم مع نظرة الإسلام الى الكون الذي هو من صنع الله تعالى وتدبيره ومع استخلاف الانسان في الارض.

وقد كانت علاقة الانسان ببيئته ومواردها يسودها التعقل والحكمة، يستتفع بخيراتها بقدر حاجته بلا إسراف أو تبديد، فتغيرت هذه العلاقة مما أدى الى الإخلال بالتوازن البيئي، لذلك أخذت علاقة الإنسان بالوسط الذي يعيش فيه تستحوذ على اهتمام يتعاضم يوما بعد آخر حتى أفلقت الحالة التي وصلت اليها البيئة ومواردها الحكومات في جميع أنحاء العالم فغدت البيئة هي قضية الساعة.

وأمام هذا الاهتمام العالمي المتزايد، يتساءل المرء عن المكانة التي تحتلها البيئة في التصور الإسلامي، وعن القواعد والضوابط والتدابير التي شرعها الإسلام ليمارس الإنسان في إطارها نشاطاته العمرانية دون أن تمتد يده الى البيئة بالإفساد والتخريب، فمما لا شك فيه أن مجموعة النصوص القرآنية والحديثية والقواعد الفقهية المبنية على التقدير الكبير للبيئة، وضبط علاقة الإنسان بها تدل كلها على مدى حرص الإسلام على رعاية البيئة وحمايتها من كل ما يخل بالتوازن البيئي ويهدد الحياة واعتباره واجبا شرعيا.

وقد درس الفقهاء هذا الواجب وتركوا ثروة فقهية عظيمة من التدابير والضوابط والقواعد الشرعية والأحكام التي يتم من خلالها أعمال هذا الواجب، والفقه البيئي محاولة اجتهادية للتنظير لعلم البيئة الإسلامي، كمبادرة ضرورية لتجديد الفقه الإسلامي وتوظيفه للإسهام في حل المشكلات التي تواجه المسلم في هذا العصر، وقد أصبحت هذه المحاولة الاجتهادية حاجة ملحة بعد أن نشطت المنظمات العالمية المعنية للتحذير واستصدار القوانين التي توقف نفاقم المشكلات البيئية.

وعليه فإن العلماء المسلمين مطالبون بإبراز دور الإسلام وقدرته على حل المشكلات المعاصرة في إطار منظومته القيمية، وذلك بالاجتهاد للتأصيل لعلم البيئة الإسلامي، ومحاولة وضع القواعد والأسس التي يقوم عليها انطلاقا من المفهوم المتميز للبيئة في الإسلام، والذي يرتبط ارتباطا وثيقا بصلاح العقائد، فكلما كانت عقيدة الإنسان صالحة كانت نشاطاته العمرانية وممارساته البيئية صالحة أيضا.

فاستشعاراً بمسئوليتنا من منطلق إسلامي بوجوب أداء دورنا في رعاية البيئة وإيماناً بأن الشريعة الإسلامية في جميع أحكامها تهدف الى إقامة الحياة الآمنة الطيبة للبشرية، ووعياً بفاعلية المنهج السليم المرتكز على قواعد هذه الشريعة في حماية البيئة ورعايتها واستمرار توازنها الطبيعي الذي أحكمه الخالق سبحانه، يأتي هذا البحث ليبين عناية الإسلام بالبيئة ورؤيته الواضحة فيها من خلال الكشف عن التدابير الشرعية التي قررها لرعاية البيئة ودعوته إلى إعمارها وصيانتها وتنميتها وحمايتها لتكون دعوة جلية إلى إيجابية الوعي البيئي، بمعنى أن يكون المجتمع ذا حس بالمسؤولية، وأن يسعى كل حسب موقعه إلى المساهمة في حفظ البيئة ورعايتها وحمايتها من كل صور الفساد، مما يقودنا في النهاية إلى التأكيد على أصالة الموقف الإسلامي، وقدرته على احتواء الأزمات والمشكلات التي تعصف بالإنسان المعاصر.

نطاق البحث وأهميته:

ازداد الاهتمام بموضوع البيئة حتى أصبحت تشغل أحاديث المفكرين والعلماء والساسة والجماهير من عامة الناس في العالم، وأمام مشكلة هذا حجمها، لا بد أن يثار السؤال حول كيفية حماية البيئة ورعايتها وتنميتها في الإسلام باعتباره منهج حياة كاملاً للإنسان، وما هي التدابير الشرعية التي قررتها الشريعة الإسلامية في ذلك.

فمن هذا المنطلق تبرز أهمية موضوع البحث الذي نتناوله في حدود التدابير الشرعية اللازمة لرعاية البيئة في الشريعة الإسلامية، والمتعلقة بأمن وحماية البيئة وصيانتها واستثمارها وتنميتها وذلك على الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت موضوع البيئة.

وعليه تأتي أهمية موضوع البحث من حتمية وجود وتحقيق أهدافه من منظور إسلامي والمتمثلة في:

أولاً: إبراز دور الإسلام الحضاري في الحفاظ على البيئة ورعايتها من خلال الكشف عن القواعد والتشريعات التي جاء بها في ذلك.

ثانياً: إرشاد الناس الى التدابير الشرعية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية والتي تسهم في الحفاظ على البيئة ورعايتها في ضوء التفاعل السليم بين الإنسان المستخلف وبيئته التي ائتمنه الله تعالى عليها والقائم على الوعي البيئي لديه.

تساؤلات البحث :

يأتي هذا البحث للإجابة عن التساؤلات التي يثيرها هذا الموضوع والتي تتمثل في الآتي:

- ما موقف الإسلام من حماية البيئة؟

- ماهي مكانة البيئة وفلسفة رعايتها في الإسلام؟

- ماهي التدابير الشرعية التي جاء بها الاسلام لتحقيق ذلك؟

منهجية البحث:

من أجل تحقيق ذلك بصورة علمية سليمة استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي نظراً لملائمته لطبيعة البحث القائم على استقراء النصوص الشرعية، والقواعد الفقهية، ومقاصد الشريعة، ثم تحليل ذلك واستنباط التدابير والضوابط المتعلقة برعاية البيئة في الشريعة الإسلامية.

التقسيم:

المبحث الأول: مفهوم البيئة وفلسفة رعايتها في الإسلام.

المطلب الأول: مفهوم البيئة وعناصرها.

المطلب الثاني: مكانة البيئة وفلسفة رعايتها في الإسلام.

المبحث الثاني: التدابير الشرعية لرعاية البيئة.

المطلب الأول: مفهوم التدابير الشرعية لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أنواع التدابير الشرعية لرعاية البيئة.

الخاتمة: وفيها النتائج والتوصيات .

المبحث الأول

مفهوم البيئة وفلسفة رعايتها في الإسلام

ظلت البيئة دوما موضع اهتمام البشر على مر العصور، وتطورت رؤاهم وتصوراتهم للبيئة وقضاياها عبر القرون، فقد أدى الاستخدام المكثف لهذا المصطلح على كافة المستويات، وفي كل مجالات المعرفة إلى اكتسابه لمفاهيم متعددة بتعدد العلوم الإنسانية، ومختلفة باختلاف مضامينها وغاياتها، ونظرا لتداخله في كل العلوم أصبح دارجا الحديث عن البيئة الاجتماعية والجغرافية والبيئية الاقتصادية والبيئة الحضارية...إلخ. لقد بات هذا المفهوم شائع الاستخدام، يرتبط مدلوله بنمط العلاقة بينه وبين مستخدمه، حيث أنه مرتبط بالعديد من النشاطات الحيوية، لذا فمن الصعب تحديد تعريف شامل للبيئة؛ فهي تتجاوز الطبيعة الفيزيائية إلى مختلف الوجود الإنساني، وتتنوع بتنوع نشاط الإنسان، والذي يعد في جوهره جدلا بين الإنسان والطبيعة، وهو الذي أثمر الحضارة الإنسانية بأسرها .

وسوف نتطرق إلى تعريف البيئة لغة واصطلاحا وكذا تعريفها في الاسلام وبيان عناصرها وذلك وفق

التقسيم التالي :

المطلب الأول

مفهوم البيئة وعناصرها

تعددت التعريفات المتعلقة بالبيئة لغة واصطلاحا فلا يمكن إعطاء صورة واضحة للتصور الإسلامي

للبيئة دون التطرق إلى مفهوم البيئة في الإسلام وبيان عناصرها.

الفرع الأول: مفهوم البيئة

أصبح مصطلح "البيئة" في جميع الدراسات المتعلقة متداولاً بهذا المجال، غير أن مفهومه لم يستقر على

تعريف واحد جامع مانع.^(١)

أولاً: المفهوم اللغوي:

من الصعب تقديم مفهوم للبيئة دون التطرق إلى المفهوم اللغوي، فالمفهوم العلمي الذي يعطي صورة

للمفهوم القانوني.

يعود الأصل اللغوي لكلمة البيئة في اللغة العربية إلى الجذر "بؤأ" الذي أخذ منه الفعل الماضي "باء"

قال ابن منظور في معجمه الشهير لسان العرب^(٢): باء إلى الشيء أي رجع إليه، وذكر المعجم نفسه معنيين

قريبين من بعضهما البعض لكلمة "تبؤأ":

والثاني: بمعنى النزول والإقامة.

الأول: إصلاح المكان وتهيبته للمبيت

كما ورد معنى البيئة في أساس البلاغة^(٣)، وفي القاموس المحيط^(٤) بمعنى المنزل، وقد جاء في الشعر

بمعنى التهيب والإينزال في المكان ، فالبيئة اسم واستبأة اتخذها مباءة، وتبؤأت منزلاً بمعنى نزلته وحللت فيه .

وفي الصحاح للجوهري^(٥): المباءة منزل القوم في كل موضع، ويقال في كل منزل ينزله القوم.

أما في المعجم الوسيط^(٦): فالبيئة هي المنزل والحال، ويقال بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية...

١- عبد المجيد عمر النجار، قضايا البيئة من منظور اسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة، قطر، سنة ١٤٠٩ هـ، ص ٣٢.

٢- لسان العرب لابن منظور، مادة "بؤأ"، ص: ٣٨-٣٩.

٣- أساس البلاغة، للزمخشري، مادة "بؤأ"، ص: ٣٣.

٤- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مادة "باء"، ٨/١.

٥- الصحاح للجوهري، مادة "بؤأ".

٦- المعجم الوسيط ٧٥/١، مادة "باء".

وفي المنجد^(١): بوأه منزلا: هياه له وأنزله فيه.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي:

كثرت التعريفات اصطلاحا واختلفت عباراتها، ويلاحظ على بعضها أنها تنظر الى البيئة باعتبارها مجموعة متجانسة من العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وهذا ما يدخل مختلف أنواع النشاط البشري في مفهوم البيئة.

ومن أهم هذه التعريفات لمفهوم البيئة ما يأتي : أنها: "الوسط المكاني الذي يعيش فيه الانسان بما يضم من عناصر حية وغير حية يتأثر بها ويؤثر فيها".^(٢)

وقيل أنها: "مجموع العوامل الطبيعية والبيولوجية والعوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتجاوز في توازن وتؤثر على الانسان والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر"^(٣)

وقيل بأنها: "المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية - ويدعى أيضا بالمحيط الحيوي - الذي يتضمن بمعناه الواسع العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية والانسانية التي تؤثر في أفراد وجماعات الكائنات الحية، وتحدد شكلها وعلاقاتها وبقائها"^(٤)

أما تعريف البيئة من الناحية القانونية فالقانون المصري رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ عرف البيئة بأنها: "المحيط الحيوي الذي يشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد وما يحيط به من هواء وماء وما يقيمه الإنسان من منشآت".

١- المنجد في اللغة والإعلام مادة "بوأ".
٢- العجمي ومصطفى ، الانسان وقضايا البيئة ، ط ١ ، ص٦.
٣- د/أحمد عبد الكريم سلامة ، حماية البيئة في الفقه الاسلامي ، مجلة الأحمدية ، العدد الأول ، ص٢٧٢.
٤- عبد المجيد عمر النجار ، ١٤٠٩هـ، قضايا البيئة من منظور اسلامي، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة- قطر، ١٩٩٩م، ط٣، ص٧٥.

ويرى الباحث قصر مفهوم البيئة على العوامل الطبيعية التي أوجدها الله تعالى في هذا الكون من مياه وتربة وهواء ونحو ذلك ، لأن هذا المعنى هو الأقرب لمفهوم البيئة، فهو المتبادر الى الذهن عند الإطلاق من ناحية، ولأنه لا يطلق لفظ البيئة على أي من النشاطات البشرية إلا مقيدا - بأن يقال: بيئة اقتصادية، أو بيئة سياسية وهكذا- من ناحية أخرى.

ويمكن تحديد مجالات البيئة بمجالين هما: مجال البيئة البشرية أو الإنسانية، ومجال البيئة الطبيعية، أما البيئة البشرية فهي البيئة المشيدة التي صنعها الإنسان نتيجة تفاعله مع بيئته التي يعيش فيها، والمقصود بهذا المجال الإنسان نفسه. وقد نظرت الشريعة الإسلامية الى رعاية البيئة البشرية من زاويتين: أولاهما: الجانب الجسدي أو الجثمانى، وثانيتها: الجانب الروحي أو النفسي، وشرعت تشريعات تكفل ذلك، ووضعت آدابا تمنع كل مظهر من مظاهر التلوث والفساد المادي والمعنوي، كما وضعت ضوابط عامة ترمي وتهدف للمحافظة على البيئة البشرية ورعايتها وحمايتها من كل ما يهدد سلامتها ووجودها^(١).

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا المجال - البيئة البشرية - ليس مرادا ولا مقصودا ولا متناولا في بحثنا هذا ، وأما مجال البيئة الطبيعية وهي كل ما يحيط بالإنسان من أرض وسماء، وما فيهما من عناصر حية وغير حية ليس للإنسان دور في وجودها، ولكن الانسان يستخدم هذه البيئة لحياته اليومية. وقد وضعت الشريعة الإسلامية خطوات عملية لرعايتها والمحافظة عليها وحمايتها من جميع أنواع المشكلات، وهذا المجال هو موضع ومحور بحثنا هذا.

١- القرضاوي، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة. ص٢٠.

ثالثاً: مفهوم البيئة في الإسلام .

إن مصطلح البيئة هو مصطلح إسلامي نظراً لذكر اشتقاقاته في عدة سور من القرآن الكريم يقول تعالى

: "وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً"^(١) أي اتخذ لهم بيوتاً للصلاة والعبادة.

كما يقول تعالى : "وبوأكم في الأرض تحذون من سهوها قصوراً"^(٢)

فكلمة البيئة لم يرد ذكرها لفظاً في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة إلا أنه إذا أخذ مفهوم البيئة بأنها

الأرض وما تتضمنه من مكونات غير حية متمثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول

وصخور ومعادن وتربة...إلخ ، ومكونات حية متمثلة في الإنسان والنبات والحيوان سواء أكانت على اليابسة

أو في الماء تجد أن البيئة بهذا المفهوم قد وردت في القرآن في ١٩٩ آية في سورة مختلفة.

ويتميز مفهوم البيئة في الإسلام بشموليته فهو يعني الأرض والسماء والجبال وما فيها من مخلوقات بما

فيها الإنسان وما يحيط به من دوافع وعواطف وغرائز . وهذا ما سيظهر من خلال التعريفات التالية:

يقول الدكتور القرضاوي في كتابه رعاية البيئة في شريعة الإسلام: "البيئة هي المحيط الذي يعيش فيه

الإنسان ويبوء إليه إذا سافر واغترب بعيداً عنه فهو مرجعه في النهاية"^(٣)

وهذه البيئة تشمل البيئة الجامدة والحية.

▪ فالجامدة تشمل الطبيعة التي خلقها والصناعية التي صنعها الإنسان

▪ أما الحية فتشمل الإنسان والحيوان والنبات.

١ - سورة يونس : الآية ٨٧.

٢- سورة الأعراف : الآية ٧٤.

٣- رعاية البيئة في شريعة الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي ، مرجع سابق ، ص: ١٢

أما الدكتور قطب الريسوني فيعرف البيئة في الإسلام بأنها: " المحيط الطبيعي الذي يكتنف مخلوقات الله تعالى حية وغير حية ، وما ينتظم هذه المخلوقات من علاقات تفاعل وتكامل في إطار السنن الكونية والنواميس الإلهية التي تنتصب ميزانا ضابطا لتصرفات المستخلف في التسخير والتعمير."^(١)

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى صنع هذه البيئة كما ونوعا ووظيفة فلا ترى في صنعه من تفاوت أو فتور

قال تعالى في كتابه العزيز: "صنع الله الذي أتقن كل شيء"^(٢)

وتصطبغ البيئة الطبيعية في المنظور الإسلامي بثلاث سمات مميزة^(٣).

- السمة الوظيفية: التي تسخر للبيئة بمواردها في تلبية مصالح الإنسان وقضاء حوائجه، فالأرض نزلت له تذليلا. قال تعالى: " والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين"^(٤).

وكان من لوازم هذه التسخير أن جعلت تربة الأرض خصبة معطاء لتستتبت فيها الأقوات، ثم هيا الماء لتحيي به الأرض بعد موتها ويسقي الناس والأنعام . مصداقا لقوله تعالى: " وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء طهورا، لنحبي به بلدة مينا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا"^(٥).

- السمة التفاعلية : التي تجعل عناصر البيئة في تفاعل مع بعضها البعض، وتوازن محكم تتجلى فيه بدائع الصنع الإلهي ؛ فكل عنصر يتأثر بنظيره ويؤثر فيه وفق سنن الله تعالى في كونه ، وبهذا يظل

١- د. قطب الريسوني ، المحافظة على البيئة من منظور إسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٢٩ م ٢٠٠٨ م دار ابن حزم ص: ٢٨-٢٩

٢- سورة النمل: الآية ٨٨

٣ - ذات المرجع السابق ص: ٣٠

٤-سورة الحجرات: الآيات :١٩-٢٠.

٥- سورة الفرقان: الآيتان :٤٨-٤٩

التكامل البيئي محفوظا ومرعيا، فالله سبحانه وتعالى خلق كل شيء بمقدار وذلك للحفاظ على التوازن البيئي.

- السمة الجمالية: "التي تستوفي غرض الترفيه والترويح عن الإنسان، فالله سبحانه وتعالى أوجد الموارد الطبيعية مختلفة الألوان والأشكال لتدخل البهجة على النفس البشرية"^(١)، فهذا مطلب شرعي يراعى حيث قال سبحانه في كتابه العزيز: " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك "^(٢)

يرى الباحث مما سبق ذكره، أن المفهوم الإسلامي للبيئة لا يختلف عن المفاهيم المدروسة والتي سبق وأن وضحناها.

الفرع الثاني: عناصر البيئة:

تتكون البيئة في المصطلح الحديث من عدة عناصر هي الأرض والماء والهواء والنبات والحيوان والطيور .

وهكذا تنقسم عناصر البيئة الى قسمين: حي وغير حي، أما غير الحي: فهو عناصر ومكونات طبيعية كالماء والهواء والأرض، وهناك قوى أو عوامل طبيعية خلقها الله تعالى تحفظ للجو توازنه وتجعل منه مكونا أساسيا من مكونات الغلاف الجوي كالجاذبية والضغط الجوي ، وأما الحي: فله من خصائص النمو والحركة والإحساس، وهو يتغذى ويتنفس ويتناسل.

١- د. قطب الريسوني ، المحافظة على البيئة من منظور إسلامي ، مرجع سابق ،ص: ٢٠

٢- سورة فاطر : الآيتان : ٢٧، ٢٨.

المطلب الثاني: مكانة البيئة وفلسفة رعايتها في الإسلام

الفرع الأول: مكانة البيئة في الإسلام

للبيئة مكانة مرموقة في تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ويمكننا توضيح مكانة البيئة في الإسلام من خلال ما يلي :

١- البعد العقدي للبيئة: حيث تحظى البيئة بمكانة عالية ورعاية متوالية في رحاب عقيدة التوحيد التي تربط الدنيا بالآخرة، وتجعل من الجزاء الأخروي ثمرة من ثمرات العمل الدنيوي، كما تجعل من أنشطة حماية البيئة ورعايتها عملا تعبديا فيه صلاح البلاد ورضا رب العباد، وفي هذا السياق يقول تعالى: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين"^(١)، ويقول عليه السلام: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء من الإيمان"^(٢).

٢- كثرة النصوص المتعلقة بالبيئة في القرآن والسنة : حيث يجد المنتبغ لآيات القرآن الكريم وأحاديثه عليه السلام مقدار ما حظيت به البيئة من اهتمام، بل إنه ليعجب بكثرة النصوص الداعية الى رعاية البيئة، والنصوص المحذرة من الإساءة اليها أو التسبب في إفسادها، مما يدل على عظم أجر وثواب رعاية البيئة وحمايتها كما جاء في حديثه عليه السلام : "مر رجل بشوك في الطريق، فقال: " لأميطن هذا الشوك، لا يضر رجلا مسلما، فغفر له "^(٣) وكذلك يدل على عظم وزر وذنب وجرم التعدي على

١- سورة القصص : الآية رقم ٧٧.
٢- رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الايمان ، باب بيان عدد شعب الايمان، رقم ٣٥ ، ج ١/٦٣.
٣- أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب فضل التهجير الى الظهر ، حديث رقم ٦٥٢ ، ج ٢ ، ص ١٣٩.

البيئة ومكوناتها كما جاء في حديثه عليه السلام: " اتقوا اللعائين قالوا: وما اللعانات يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم ".^(١)

فكان من أوائل ما قرره الإسلام: أن الله تعالى خلق البيئة نقية، سليمة، نافعة، جميلة، تسر الناظرين، قال الله تعالى: " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج "^(٢)، والبهيج: الشيء الجميل الذي يدخل البهجة والسعادة والسرور الى من نظر إليه .

حيث تشير الآيات الى أن الله تعالى خلق الفضاء، والأرض، والبحار، والأشجار وغيرها من مظاهر البيئة وعناصرها سليمة نقية طيبة نافعة للإنسان، بل ان هذه الآيات أضفت على هذه المذكورات بعدا جماليا وذوقيا لتنبه الانسان على ضرورة مراعاة هذا الخلق النقي الجميل، والحرص على استمراره، والمحافظة عليه وأن يتصف بالإيجابية والتفاؤل والحرص على الانجاز، كما نصت آيات أخرى كثيرة على تعدد نعم الله البيئية على الإنسان، وكلها في حقيقتها تكريم من الله تعالى وتسخير لمخلوقاته الكونية من ماء وهواء وحيوان ونبات وجماد للإنسان .

فمن هذه الآيات ندرك مكانة البيئة في الإسلام، وأن الله تعالى منح الإنسان الموارد الكونية والبيئية النافعة له، فيسرها له للانتفاع بها في أغراض شتى، وجعل هذه الأغراض المادية سبيلا من سبل الإعانة على الحياة وهدفا من الأهداف الكلية للوصول لمعرفة الله تعالى، والمتمثلة في الألوهية الكاملة له عز وجل .

وكذلك كثرت الأحاديث النبوية الداعية الى رعاية البيئة والعناية بها، من ذلك قوله عليه السلام: " عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت

١- صحيح مسلم ، ٢٢٦/١ ، حديث رقم ٢٦٩ .

٢- سورة ق : الآيتان ٧،٦ .

في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن " (١) ففيه إشارة وتنبية للأفراد أن يحافظوا على نظافة البيئة والأماكن العامة وطرق الناس ومراقبتهم .

وقوله عليه السلام: " ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زراعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة " . (٢)

وقد اتضح أن القرآن يسلك طريقين في الحفاظ على البيئة هما :

الأول: تكفل الله تعالى بحفظ النوع والسلالة لجميع المخلوقات، وقد بدأ حفظ النوع والسلالة مع الطوفان في عهد سيدنا نوح عليه السلام ويستمر هذا الحفظ الى أن يرث الله الأرض وما عليها بإذنه.

الثاني: الضوابط العديدة التي وضعها القرآن للإنسان في التصرف بمكونات البيئة، فنهاء عن الإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل فقال سبحانه الارض: " واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد " (٣) ونهاء عن الإسراف، ودعاه الى التوسط والاعتدال في كل أحواله فلا إفراط ولا تفريط .

وقد تجاوزت رعاية الإسلام للبيئة الظروف والأحوال العامة الى ظروف الحرب وأحوالها، حيث نجد وصاياهم عليه السلام وخلفائه من بعده للجيش عند توجهها للقتال والحرب، بحماية البيئة ومكوناتها كما جاء في وصية ابي بكر ليزيد بن أبي سفيان: ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لمأكله ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه " (٤) وهكذا تتضح مكانة البيئة في الإسلام، وحرصه على رعايتها وصيانتها، ودعوته الى حسن استثمارها والانتفاع بها .

١- رواه مسلم ، في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها ، رقم ٥٥٣ ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .

٢- رواه البخاري ، في صحيحه ، كتاب الحرث والزراعة ، باب فضل الزرع والغرس ، حديث رقم ٢٣٢٠ ، ج ٣ / ٢١٤ .

٣- سورة البقرة : الآية رقم ٢٠٥ .

٤- رواه مسلم في كتاب الأشربة ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٨٦/١٣ .

الفرع الثاني: فلسفة رعاية البيئة في الإسلام

تستند الشريعة الإسلامية في رعايتها للبيئة الى تصور فكري أو فلسفة جامعة مانعة، تعلي من شأن الإنسان وتتسامى به ليكون حقا خليفة الله في أرضه، تحببه في الخير وتحبب الخير إليه، وتمزج دينه بدنياه، وتجعل الدنيا جسراً للآخرة، وعليه تعتمد هذه الفلسفة على جملة ركائز إيمانية عقديّة تجعل التدابير الشرعية لرعاية البيئة مصبوغة بهذه الفلسفة والتصور وتتمثل هذه الركائز فيما يلي :

١- أن الإنسان خليفة الله في أرضه، وأنه حمل أمانة عمارة الأرض قال تعالى: " وإذ قال ربك للملائكة إني

جاعل في الأرض خليفة" ^(١)، وهذا التكريم للإنسان يقابله بالضرورة واجب يقتضي المحافظة على ما في

البيئة من موارد وخيرات ، كما يجعله مطالبا بالإحسان وحسن الخلق، والطاعة الكاملة لخالقه

سبحانه، وبالتالي الإحساس بالأمانة في التعامل مع البيئة ، وحمل المسؤولية، وأن مآل العمل الى

الله تعالى والحساب عنده وهذا يدعم التوحيد: عقيدة وسلوكا ويجعل تصرفات الإنسان مع عناصر

البيئة محكومة ومنضبطة بحدود الله وشرعه وبغية مرضاته^(٢).

٢- اعتماد التشريع الإسلامي على مبدأ المسؤولية الجماعية في الضبط الاجتماعي على مستوى الفرد

والأسرة والمجتمع، حيث قال عليه السلام: " ألا كلكم راع ومسئول عن رعيته ". حيث تشيع روح التوجيه

الجماعي كما في قوله تعالى: " وتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" ^(٣)،

والمساءلة الجمعية مما يدعم القيم ويفرض السلوك القويم، ويردع الانحراف بالعلاج والوقاية كما قال

١- سورة البقرة : الآية رقم ٣٠.

٢- د. محمد السيد ارناؤوط، ، الانسان وتلوث البيئة، الدار اللبنانية، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص٩٧.

٣- سورة آل عمران : الآية رقم ١٠٤.

عليه السلام: " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان " (١).

وقد اعتبر الإسلام رعاية البيئة مسؤولية الجميع وهي أمانة في أعناق الأمة تتحمل وزر التقصير في أدائها أمام الله تعالى: " انا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا " (٢)

وفي ضوء هذه الفلسفة كانت حياته عليه السلام وخلفائه من بعده، نموذجا تطبيقيا في كل شيء، حتى التعامل مع النبات والحيوان والطيور والجماد وسائر عناصر الطبيعة الأخرى كالأرض والماء والهواء لأن الانسان مكلف بالعناية ببيئته وما فيها، وهو جزء من مفهوم استخلاف الانسان على الارض، فكان نهيه عن التخریب والفساد في بيئته المحيطة به قال تعالى: " ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها " (٣)

وعليه فقد جاءت تعاليم الإسلام واضحة فيما يتعلق بعناصر البيئة من حيث الرعاية وطريقة تعامل المسلم معها ، فنشأت ثقافة الحفاظ على البيئة في الإسلام من خلال تنمية المعارف والقدرات والقيم والاتجاهات لدى جميع أبناء الأمة تجاه البيئة بكل مكوناتها وعناصرها، ومن خلال خلق الوعي والاحساس بالمسؤولية لديهم بوجود المحافظة عليها وعدم استنزافها وعدم هدر مواردها وخيراتها أو اساءة التعامل معها.

١- مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ٢١٢/٢ ، حديث رقم ١٠١٧٥ . أبو داود ، سنن أبي داود ٤/١٢٣ ، حديث رقم ٢٣٤٠٢ .

٢- سورة الأحزاب : الآية رقم ٧٢ .

٣- سورة الأعراف : الآية رقم ٨٥ .

المبحث الثاني : التدابير الشرعية لرعاية البيئة

تضمن التشريع الإسلامي جملة من التدابير والتشريعات التي تنص على تحقيق الرعاية للبيئة، وقد تعددت أنواع وصور هذه التدابير والتشريعات، فجاءت متناسبة مع طبيعة كل عنصر من عناصر البيئة ودرجته من جهة، ومع حاجة وعلاقة الإنسان بهذا العنصر من جهة أخرى.

وسنبين في هذا المبحث مفهوم التدابير الشرعية الواردة في رعاية البيئة وأنواعها .

المطلب الأول: مفهوم التدابير الشرعية لغة واصطلاحاً :

الفرع الأول: مفهوم التدابير الشرعية لغة :

التدابير جمع تدبير وهو النظر الى ما تؤول إليه عاقبة الأمر^(١)، والتدبير: التفكير فيه ودبرت الأمر تدبيراً: فعلته عن فكر وروية^(٢).

الفرع الثاني: مفهوم التدابير الشرعية اصطلاحاً :

والتدابير في الاصطلاح لا يخرج معناها عن المعنى اللغوي، حيث قيل: التدبير: مصدر دبر الأمر، اذا ساسه ونظر في عاقبته^(٣)، وقيل: النظر في العواقب بمعرفة الخير ، وقيل: اجراء الأمور على علم العواقب، وهي لله تعالى حقيقة، وللعبد مجازاً^(٤).

ولذلك فهي: مجموعة الإجراءات التي اتخذها الشرع لتحقيق أمر ما، وعلى ذلك يكون مفهوم التدابير الشرعية في هذه الدراسة: هي مجموعة المبادئ والقيم البيئية والتوجيهات والتشريعات والأحكام والإجراءات

١- ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ١٣٢١، الرازي، مختار الصحاح، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ص ١٥٤.

٢- الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المطبعة العلمية، القاهرة، ج ١، ص ٢٥٦.

٣- معجم لغة الفقهاء، ط ١، ص ١٢٦.

٤- الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ص ٧١-٧٢.

والأمور التي وردت في التشريع الإسلامي وانتهجتها الشريعة الإسلامية لرعاية البيئة، سواء في صورة نصوص تشريعية، أو قواعد فقهية، أو ضوابط ومبادئ، أو إجراءات تطبيقية ترتبط بأعمال الإنسان في الحياة، والتي تكون بمثابة موجّهات لسلوك الإنسان تجاه البيئة فتحدد كيفية وطريقة تعامله مع عناصر البيئة ومواردها، لتحقيق الرعاية والعناية بالبيئة وعناصرها، بحيث يحول اعتماد هذه التدابير دون إفساد هذه الموارد .

المطلب الثاني: أنواع التدابير الشرعية لرعاية البيئة

لما كانت رعاية البيئة واجبا اسلاميا يمتد حتى الى فترات النزاع المسلح، فقد تضمنت الشريعة الإسلامية كثيرا من التدابير والضوابط التي تعمل على تحقيق هذا الواجب، حيث جاءت هذه التدابير متنوعة متعددة، منها ما يتعلق بجانب المحافظة على البيئة ومصادرنا من الضرر والأذى والفساد والتلوث والاستنزاف الجائر والاسراف والتبذير واللهو والعبث والاستخدام في غير حاجة الإنسان ونفعه، أي النهي عن تلك السلوكيات الضارة بالبيئة فهي لذلك تدابير وقائية أو سلبية.

وتختص هذه التدابير بضبط وتوجيه سلوك الأفراد نحو حماية البيئة ومكوناتها من كل ما ذكر، فتشمل المحافظة على نقاوة الغلاف الجوي- الهواء- ونظافة الثروة المائية، والطرق والمرافق العامة والبيوت، وتوفير الهدوء، وحماية النباتات والحيوانات، وحسن استخراج الثروات، وضرورة الاعتدال والتوازن في استخدام واستهلاك موارد البيئة بعيدا عن الافراط والتفريط، أو الترف واللهو والعبث.

وعلى هدي ماتقدم يمكننا تقسيم التدابير إلى نوعين : تدابير أصولية فطرية، وتدابير فقهية تشريعية.

الفرع الأول: التدابير الأصولية الفطرية العامة :

ويراد بهذه التدابير القواعد والضوابط والمبادئ المنطقية التي ترتبط بأصل الفطرة الكونية وتستند الى

الاستنباط من دلالات النصوص الشرعية ومقاصد الشريعة ومبادئ علم الأصول، وأهم هذه التدابير :

أولاً: دقة وحسن وابداع خلق الله تعالى للبيئة، وحفظها بدروع واقية، واقامتها على نظام متوازن دقيق يقتضي رعايتها:

فكل شيء فيما حولنا وضع بحكمة، ولقد نبه القرآن الكريم الى احكام واتقان صنعة الله في هذه البيئة

حيث قال سبحانه: "انا كل شيء خلقناه بقدر" ^(١)، ثم دعا المسلم أن ينظر الى هذا الإحكام والإتقان فقال

سبحانه: " قل انظروا ماذا في السموات والارض" ^(٢) ، حيث تؤدي هذه الدعوة بالإنسان الناظر في الكون الى تقرير

نتيجة مؤداها أن إتقان ودقة خلق الكون وجماله وتوازنه هو أول التدابير الشرعية التي وضعها الله تعالى

لرعاية البيئة منذ أن بدأ سبحانه خلق مكوناتها " كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب . " ^(٣)

فمن الثابت أن الوجود البيئي كله مرتبط بنظام دقيق متوازن، وقوانين صارمة تسلكه بجميع مكوناته الحية

والجامدة في سلسلة وثيقة الترابط تضمن خدمة عنصر الحياة فيه، فالهواء مثلا وهو المخلوط الغازي الذي

أهم عناصر تكوينه الأكسجين كونه العنصر الوحيد الصالح لتنفس الكائنات الحية، فحتى تحافظ البيئة على

توازنها ولا ينفذ الأكسجين بسبب عمليات التنفس والاحتراق، شاءت حكمة الله أن تقوم النباتات بتعويض

١- سورة القمر : الآية رقم ٤٩ .

٢- سورة يونس : الآية رقم ١٠١ .

٣- سورة ص : الآية رقم ٢٩ .

المفقود منه من خلال عملية البناء الضوئي التي يتم خلالها امتصاص ثاني أكسيد الكربون وإطلاق غاز الأكسجين وفي ذلك دلالة واضحة على رعاية الله سبحانه للبيئة وحمايتها منذ بداية خلقها^(١).

وكذلك طبقة الأوزون التي تعتبر أحد دروع البيئة ضد مخاطر الأشعة فوق البنفسجية التي ترسلها الشمس، فمن اتقان صنع الله أن جعل عمليات تكون الأوزون الطبيعية معادلة تماما لعمليات تدميره، لتبقى نسبته ثابتة في الغلاف الجوي، وهو يعمل كدرع واق للأرض من خلال امتصاصه لتلك الأشعة. وهكذا فإن خلق الله تعالى للبيئة على هذه الكيفية البديعة الموزونة الضابطة لاستمرار بقائها ورعايتها والحفاظ عليها يقتضي من الانسان الراشد العمل على رعاية البيئة والحفاظ عليها وفق تلك الكيفية التي خلقها الله تعالى عليها.

ثانيا: رعاية البيئة كواجب في مقابل التمتع بها كحق:

فقد خلق الله تعالى البيئة الطبيعية نظيفة سليمة مليئة بالخيرات والنعم وسخرها وهياها ليعيش الانسان فيها سعيدا ، فكان التمتع بهذه البيئة من أهم حقوق الانسان، غير أن الإسلام حين يعطي الانسان حق التمتع بالبيئة فانه يوجب عليه ألا يكون استعماله لهذا الحق مضرا باستعمال الآخرين لحقوقهم أو حائلا دونه، فهذه قاعدة عامة في جميع الحقوق والواجبات في الفقه الإسلامي، حيث صاغها الفقهاء بقولهم: "ميزان العدل في الإسلام أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات " فكل حق يقابله واجب - كما يقول الفقهاء- فمن استوفى ماله من الحقوق، يجب عليه أن يوفي ما عليه من واجبات.

ورغم أن الإسلام قد رسخ فكرة الحق في التمتع ببيئة سليمة نظيفة مكتنزة، إلا أن فقه القانون الدولي

العام لم يكن يعترف حتى وقت قريب بهذا الحق^(٢) .

١- د.محمد السيد أرناؤوط، الانسان وتلوث البيئة ، الدار اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٦١ .
١- محمد بكر اسماعيل، القواعد الفقهية بين الاصلية والتوجيه، دار المنار، القاهرة، ١٤١٧هـ/م ١٩٩٧، ص ٣١١ .

ثالثاً: ضرورة رعاية البيئة لتؤدي وظائفها التي خلقها الله تعالى لها:

تحدد أهمية الشيء من خلال وظائفه، فأهميته وفائدته هي الأساس في العمل على

حمايته ورعايته، فالأشياء عديمة الأهمية والفائدة والقيمة تكون غير جديرة بالاعتبار والرعاية .

وقد خلق الله موارد البيئة على اختلاف أنواعها - حية أم غير حية- لحكمة يعلمها ولوظائف لا تتفك

عن أدائها، ومما لا شك فيه أن الاعتداء على البيئة يحول دون اداء وظائفها على النحو المطلوب، فمن

وظائف البيئة الوظيفة التعبدية، ولها شقان: أحدهما: يخص الموارد البيئية ذاتها، والآخر : يخص الانسان

الذي سخرت لمنفعته، فمن ناحية الموارد ذاتها، فهي مخلوقات تسبح بحمد الله وتسجد له، قال تعالى: " تسبح له

السموات السبع والارض ومن فيهن، وان من شيء الا الله يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم " (١)

ومن ناحية الإنسان الذي سخرت تلك الموارد لمنفعته وخدمته، فإنها محل ومجال تأمله و اعمال عقله

وفكره ، فالكون وما فيه من مخلوقات حية وجمادة هي كمال الصنع الإلهي والإبداع الرباني، فهي آيات

كونية وعلامات مادية قاطعة على قدرة الله الداعية الى الايمان بالله وحسن عبادته، قال تعالى : " إن في خلق

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبواب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتمكرون في خلق السموات

والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار" (٢) ، فدعوة الخالق الإنسان للنظر والتفكر في هذا الكون،

ليكون دافعا له لرعاية هذه النعم فلا يدمرها، وليؤدي هذا النظر والتفكر بالإنسان الى معرفة ما ينفعه فيحرص

عليه وما يضره فيبتعد عنه، فالكون وما فيه مسخر لمنفعة الإنسان.

٢- سورة الإسراء : الآية رقم ٤٤ .

١- سورة آل عمران : الآيات ١٩٠، ١٩١ .

فعلى كل فرد أن يستعمل موارد البيئة دون تعسف أو جور أو افتئات على حقوق الآخرين ، وعليه أن يربعاها ويحافظ عليها لأنه يجعلها قادرة على أداء وظائفها التي خلقها الله تعالى لها على النحو المطلوب.(١)

ومن الثابت أن واجب رعاية البيئة يقتضي واجب ترميتها والارتقاء بها، ومنع تدهورها أو افسادها أو تلوثها أو استنزاف موجوداتها، فواجب الرعاية هذا لا يقتصر على ذلك السلوك السلبي بعدم تدخل الانسان في شؤون البيئة بالافساد، بل يقتضي أيضا سلوكا ايجابيا هو التدخل لتنمية هذه البيئة وعناصرها وتكثيرها وتحسينها الى أقصى حد يمكن أن يقدمه الانسان، كما لا تقتصر هذه الرعاية على وقت السلم بل تمتد حتى الى وقت النزاع المسلح والحرب ، والإسلام لما شرع القتال لم يخالف مبدأه في حماية البيئة، بل سعى الى حمايتها حتى في اثناء الحرب، فعن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث جيوشه قال : اخرجوا بسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمتلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع" (٢).

رابعا: رعاية البيئة تحقيق لمقتضى استخلاف الانسان في الارض:

استخلاف الله الانسان في الارض وما يقتضيه من عمارة الكون وتكريم الانسان وتسخير ما في الكون له يدل على تقرير الله تعالى لحق جميع البشر في البيئة ومواردها سليمة متوازنة كما خلقها سبحانه فلا يستعصى أي شيء منها عليه سبحانه، بل على الانسان المستخلف في الارض أن يعمرها ويعمل على

٢- د.محمد شلتوت ، من توجيهات الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص١٢١ .
١- أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته اياهم بأداب الغزو وغيرها ، حديث رقم ١٧٣١ ، ١٣٥٧/٣ .

اصلاحها واتساع عمرانها واقرار الخير والسعادة في مناحيها ، وأن يعمل على تنمية ما هو مستخلف فيه كي يتحقق المعنى الحقيقي للخلافة.

فالموارد والثروات التي أودعها الله تعالى في البيئة ان لم يتم تنميتها وتكثيرها وتطويرها ستفنى باستهلاك الجيل الحاضر دون الاجيال المقبلة، ولذلك كانت الدعوة الى اثراء الارض والعمل على عمارتها، كما كان النهي عن الافساد في الارض وبيئتها مما يقتضي الحفاظ عليها وعدم الاسراف والجور في استغلالها حتى نورثها سليمة قادرة على الانتاج والتكاثر للأجيال القادمة^(١).

ومن واجب الانسان تجاه نعم الله التي بثها في الطبيعة الشكر والثناء بطريقة تتناسب مع طبيعة تلك النعم وهو ما يكون بالمحافظة عليها ونمائها والترشيد في استهلاكها حتى تعمر للأجيال والأمم اللاحقة، فالشكر على النعمة أمر واجب لقوله سبحانه: "كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون"^(٢) وهذا الشكر يكون بأحد أمرين: الحفاظ على الموجود ورعايته، والاهتمام والعمل على ايجاد المفقود.

خامسا: رعاية البيئة تحقيق لمقاصد الشريعة وضرورياتها الخمس:

ان رعاية البيئة تؤيدها وتؤكددها مقاصد الشريعة التي جاءت لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد، وتتمثل مقاصد الشريعة من الخلق في حفظ دينهم وأنفسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم، وهي المسماة بالضروريات الخمس ، وفي ذلك يقول الشاطبي: "وقد اتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل "^(٣)

٢- محمد حسن ابو يحيى، ، نظام الاراضي في صدر الدولة الإسلامية، دار عمار، عمان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ط١- ص٥٧.

٣- سورة الحج : الآية رقم ٣٦.

١- الشاطبي، الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن ال سلمان ٣٨/١، دار ابن عفان، الجيزة-مصر، ط١، ١٤٢١هـ .

ويقول أيضا: " والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما: ما يقيم اركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني: من يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب عدم". ، وبهذا أعطانا هذا التوجيه الاصولي طريقين لرعاية البيئة: طريق ايجابي أو وجودي بتعبير الشاطبي، وطريق سلبي أو عدمي بتعبيره ، ولا ريب أن رعاية البيئة تدخل في الضروريات الخمس كلها .

ففي رعاية البيئة محافظة على الدين، ذلك لأن الجناية على البيئة ينافي جوهر التدين الحقيقي، ويخالف ما أمر الله به الانسان بالنسبة للمخلوقات من حوله، قال تعالى: " ان الله يأمر بالعدل والاحسان"^(١)، كما ينافي مهمة الاستخلاف التي كلف الله بها الانسان في الارض، وما تقتضيه هذه المهمة من عمارة الارض واصلاحها.

وعليه فان رعاية البيئة بالحفاظ عليها واصلاحها يحقق مقاصد الشريعة وضرورياتها الخمس، وبالمقابل فان افساد البيئة واستنزاف مواردها يضيع هذه المقاصد، ويجني على هذه الضروريات كلها ، وهكذا يسعى الإسلام بتوجيهاته الأخلاقية وتشريعاته القانونية للمحافظة على عناصر البيئة ومكوناتها، ويعمل على تنميتها وتحسينها، كما يقاوم كل عمل يفسد البيئة ويتلف عناصرها ويعتبر ذلك عملا محرما يعاقب عليه، وهناك أنواع من الاتلاف بدوافع مختلفة كلها محرم ومنكر شرعا.

٢- سورة النحل : الآية رقم ٩٠.

الفرع الثاني: التدابير الفقهية التشريعية لرعاية البيئة

ويراد بهذه التدابير مجموعة القواعد الفقهية التي تكونت مفاهيمها ومعالمها وصياغتها بالتدرج على يد كبار الفقهاء، وذلك بالاستناد الى الاجتهاد والاستنباط من دلائل النصوص الشرعية العامة، ومبادئ علم أصول الفقه، وعلل الاحكام، ومقاصد الشريعة.

وبناء على ما تقدم سوف نقنصر على بيان أهم هذه القواعد والتي بين بعض الفقهاء أن مسائل الفقه كلها يمكن أن ترجع اليها بما فيها مسائل البيئة وغيرها حيث تعتبر كل قاعدة تدبيرا تشريعا مستقلا لرعاية البيئة وهي كما يلي:

أولا : قاعدة الامور بمقاصدها^(١)

ان الاعتبار في جميع الاعمال التي يثاب العبد عليها أو يعاقب بحسب النية، أي بحسب قصد العبد بفعلها أو بتركها، فان قصد بالفعل أو الترك طاعة الله تعالى أثيب عليها، وان قصد معصيته عوقب عليها وبناء عليه فان الاصل في صلاح العمل هو النية والمقصد، فالأعمال المباحة التي لا يقصد منها أصحابها الاضرار بالبيئة تعتبر أعمالا صالحة ومثابا عليها وان حصل منها بعض الضرر ما دام هذا الضرر غير مقصود ، غير أنه يجب التوقف عن هذا العمل عند اكتشاف ضرره، بل ان النية اذا تمكنت من القلب في اصلاح البيئة ورعايتها أجر صاحبها وأثيب، وان لم يتمكن من فعل شيء، حيث أن النية يمكن أن تحول العادات في اصلاح البيئة وعمارتها الى عبادات.

ثانيا: قاعدة لا ضرر ولا ضرار

وهذه هي أهم القواعد، فهي تهدف الى تحصيل المقاصد وتقريرها بدفع المفسد أو تخفيفها، والضرر هو الحاق مفسدة مطلقا، والضرار الحاق مفسدة بالغير لا على وجه الجزاء المشروع، وهو مقابلة الضرر بمثله ،

١- محمد بكر اسماعيل، القواعد الفقهية بين الاصلية والتوجيه، مرجع سابق ، ص١٢٢.

ومقتضى القاعدة أنه لا ينبغي اتيان السلوك الذي يسبب الأذى والضرر في المال أو النفس، ويتحقق الضرر بالتعدي المباشر وغير المباشر من خلال افساد العناصر البيئية التي تلزم لوجود وبقاء المصلحة المصونة، كإفساد أو تلويث الهواء أو الماء أو التربة الذي ينشأ عنه هلاك المزروعات أو الحيوانات أو الانسان، فذلك ضرر يجب منعه وذلك لقاعدة "الضرر يزال" حتى لو كان من أتى الفعل يمارس نشاطا مشروعاً كصاحب المصنع، ولو كان أيضاً يحقق مصلحة أو منفعة طالما يصاحب ذلك أضرار ومفاسد بناء على قاعدة "درء المفاسد أولى من جلب المصالح."^(١)

ويرتبط بهذه القاعدة عدد كبير من القواعد الفرعية التي تبين مجملها، وتقيد مطلقها، وتخصص عمومها، وتكشف عن مقاصدها، ومن هذه القواعد: الضرر يزال، والضرر لا يزال بالضرر، ودرء المفاسد أولى من جلب المنافع، والتصرف على الرعية منوط بالمصلحة، والضرورات تبيح المحظورات، وما أبيع للضرورة يقدر بقدرها، وما جاز لعذر بطل بزواله، والمشقة تجلب التيسير، والامر اذا ضاق اتسع واذا اتسع ضاق، وهذه اشارة الى أن المسلم يجب أن يتسم بالوسطية في كل أمور حياته، ومنها علاقته بالبيئة، فلا يكون مائلا الى الافراط أو التفريط، وهذا هو العدل، والضرر الأكبر يدفع بالضرر الأخف .

ثالثا: قاعدة اذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام^(٢)

وهذا يعني أنه اذا تساوت مصلحتان في فعل أو مشروع معين يتصل بأمر البيئة ورعايتها، بحيث تقدم الأولى نفعا وتجلب الثانية ضررا، أو أن المصلحة مباحة من ناحية لكنها محرمة من ناحية أخرى فان التحريم هو الذي يغلب ويوقف ذلك العمل أو المشروع، كما في قيام الدولة ببعض الأنشطة المشروعة، كالمصانع، أو المفاعلات النووية وغيرها من الأنشطة التي يمكن أن تسبب مخاطر للناس جراء التلوث

١- محمد بكر اسماعيل، القواعد الفقهية بين الاصل والتوجيه، مرجع سابق، ص ٩٩، ١٠٧، ١٧٠.
١- مصطفى كامل مصطفى، خواطر إسلامية في التوعية البيئية والسكانية، ١٩٩٩ م. مطبعة نهضة مصر، ص ٤٠.

المتحقق عن هذه الانشطة رغم مشروعيتها وابعادها، ففي هذه الحالة يجب أن تكون ممارسة هذه الانشطة مقرونة بقيد عدم الاضرار بالآخرين أو احداث المخاطر لهم، والا فيحرم القيام بهذه الانشطة، وهذه القاعدة تتكامل مع القاعدة السابقة وغيرها من القواعد في ضبط التصرفات والسلوكيات البيئية من ناحية تشريعية فقهية.

رابعاً : قاعدة من أحيا أرضاً ميتة فهي له

مما لا شك فيه أن احياء الأرض الموات يساهم مساهمة كبيرة في الحفاظ على التوازن البيئي ويساهم في تحسين ظروف البيئة وتيسير سبل الحياة للناس جميعاً، حيث يحقق هذا الاحياء زيادة المساحة المزروعة فيزيد الغطاء النباتي الذي يؤدي الى تحسين الظروف البيئية كتخفيض درجة الحرارة وتلطيف الجو، والحد من الزحف الصحراوي والضغط العمراني.

ومن هنا فقه الصحابة والتابعون قيمة عمارة الارض واحياء مواتها، فقد كان من سياسته عليه السلام وخلفائه من بعده الاقطاع من الأراضي البور لبعض الرجال الذين قدموا خدمات جليلة للدولة الإسلامية، فهي من جهة مكافأة لهم، ومن جهة أخرى تشجيع على استصلاح الارض واعمارها، ونتج عن ذلك أيضاً نزع الارض الموهوبة ممن لا يعمرها، وإنما يقطع الحاكم لأجل المصلحة، لأن تصرفاته على الرعية منوطة بالمصلحة كما جاء في القاعدة الفقهية ، فاذا لم تتحقق المصلحة بان لم يعمرها من اقطعت له ولم يستثمرها فإنها تنتزع منه، وذلك لأن ملكية الارض في الإسلام هي ملكية انتاج تبعا لغاية خلق الارض وكيفية التعامل معها، فمن ينتج يملك ومن لا ينتج لا يملك.^(١)

١- عبد السلام العبادي، الملكية في الشريعة الإسلامية- طبيعتها ووظيفتها وقبورها، مكتبة الاقصى، عمان، ١٩٨٨م ١-، ١٦.

خامسا: قاعدة كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه

ومفهوم هذه القاعدة أن المسلم معصوم الدم والمال، فلا يحل أيهما بغير حق، وهذه القاعدة يمكن أن تشمل أبواب الفقه كلها لأن الفقهاء يتكلمون عن هذه الحقوق الثلاثة، ولذلك فإنها تعد ضمانا لحفظ الحقوق كلها، وميثاق شرف يحتكم اليه المسلمون في الوفاء والاستيفاء، وقد سبق البيان أن مصادر البيئة حق عام للبشرية على اختلاف أجيالها، فلأجيال البشرية القادمة حق في هذه المصادر مثل حق الجيل الحاضر الذي يتمتع وينتفع بها.^(١)

ولذلك يجب على هذا الجيل رعاية وحماية هذه المصادر على الوجه الذي يصلح تسليمها عليه للجيل القادم، ليتمكن من الانتفاع بها باعتبارها ملكا وحقا ثابتا له.

٢- محمد بكر اسماعيل، القواعد الفقهية بين الاصلية والتوجيه، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

الخاتمة

من خلال هذه البحث يتضح أن علاج مشكلات البيئة رهين بعلاج الإنسان نفسه، فهو الذي أفسدها بجشعه وظلمه وإسرافه وعليه أن يصلحها.

فمن استقراء الأحاديث النبوية يجد الباحث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغير داخل الصحابة ويعالج نفوسهم فهي أصل الداء، والقرآن الكريم يقر هذه القاعدة الاجتماعية، يقول سبحانه: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (١).

كما أن السنة النبوية لم تقتصر على تحديد أساليب الثواب للمحسنين للبيئة والعقاب للمسيئين لها، بل تعدت ذلك إلى جعل أخلاقيات التعامل مع البيئة سلوكا حميدا يجب أن يلتزم به المسلم ويراقب في أدائه ربه. وذكرنا أيضا بعض القواعد الفقهية التي وضعها فقهاء الإسلام والتي يمكن الاستفادة منها في مجال البيئة، وهي ليست كل القواعد، كما أنها ليست كل أعمال الفقهاء في هذا المجال، فقد أبدعوا في تقديم كثير من النظريات الفقهية التي يمكن الاستفادة منها في مجال البيئة كنظرية التعسف في استعمال الحق، ونظرية الباعث، ونظرية المخاطر، ونظرية الظروف الطارئة.. وغيرها مما لا مجال للخوض فيه في هذا المقام .

وبذلك استطاع الفقه الإسلامي أن يتمثل المبادئ والتعاليم التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأن يستخلص منها المقاصد العامة التي تكفل للبيئة سلامتها، وتلزم الأمة بصيانتها، وتحرم العبث بمواردها التي جعل الله ديمومتها وازديادها رهنا بشكره عليها، أي حسن التصرف فيها، وقتلها وانقلابها نقما ضارة وشرورا مهلكة مرتبط بانحراف الانسان في التعامل معها، وكفرانها باستغلالها في غير الغاية التي خلقت لها.

١ - سورة الرعد: الآية رقم ١١.

أولاً : النتائج:

لقد توصلنا الى جملة من النتائج نسرد بعضها منها على النحو التالي:

- ١- سخر الله كل مكونات البيئة لصالح الإنسان بما يتلاءم ومقام تكريمه ، ولذا كان العبث بها إساءة للقيم الإنسانية سر الخلق الإلهي.
- ٢- جاءت الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها وقواعدها الفقهية ومقاصدها التشريعية بمنهج شامل يضمن رعاية البيئة، ويقوم هذا المنهج على أساس الربط الوثيق بين عقيدة الانسان واستقامته وبين صلاح بيئته وازدهارها، وجعلت الاخلال بها اخلالا بالدين وخروجاً عن منهج رب العالمين.
- ٣- التشريعات الإسلامية هي وحدها الكفيلة برعاية البيئة، لأنها تجعل هذه الرعاية جزءاً من العقيدة وفريضة يجب القيام به.
- ٤- وضعت الشريعة أحكاماً ونظماً تشجع على استصلاح الموارد البيئية مثل: احياء الاراضي البور والصحراوية واستغلالها بالزراعة والاستثمار، كما حظرت الشريعة قطع الشجر والنبات والعبث به، وجعلت لبعض الأماكن حرمة خاصة يمنع فيها قطع الشجر والنبات، كما جاءت بأحكام واضحة ومفصلة تقوم على حفظ الهواء وابقائه نقياً صافياً من كل ما يلوثه أو يفسده.
- ٥- الحفاظ على مقدرات الأرض حاجة بشرية وضرورة دينية، لا يجوز المساس بها تحت أي ذريعة علمية.

ثانياً : التوصيات:

توصل الباحث الى جملة من التوصيات نسرد بعضها منها على النحو التالي :

- ١- تقديم الرؤية الإسلامية لمشكلات البيئية إلى العالم الآخر وذلك عن طريق ترجمة الأعمال الرائدة في هذا المجال إلى اللغات العالمية ليتعرف العالم على هذه الرؤية التي هي تعالج أساس المشكلات البيئية وتقدم حلولاً ناجحة لها .
- ٢- نشر ثقافة المحافظة على البيئة لدى الناشئة وذلك عن طريق تضمين المناهج الدراسية في المدارس والجامعات موضوعات تعرف بالمشكلات البيئية وطرق الوقاية منها .
- ٣- التأكيد على دور المنظمات والهيئات المدنية في رفع درجة الوعي البيئي ودفع الناس للمساهمة في المحافظة على البيئة .

- ٤- المساهمة في تفعيل دور الاتفاقيات الدولية وحشد الجهود على كافة المستويات لتنفيذ بنودها.
- ٥- تبني المنظور الإسلامي فيما يتعلق بأنماط الإنتاج والاستهلاك المتوازنة بيئياً واستخدام أساليب التقنية الملائمة للبيئة.
- ٦- تخصيص برامج محددة على وسائل الإعلام تعنى بحماية الإنسان من فعله المضر بالبيئة التي جعلها الله رحماً ليعيش فيها بعافية وكرامة ، من خلال تسليط الضوء على المنظور الإسلامي للكون من حولنا والقوانين التي تحكم الحياة فيه ، بقصد تعميق الوعي البيئي لدى الفرد والمجتمع، وحث شرائحه على الاسهام في رعاية البيئة ومواردها.
- ٧- الحكم على كل مستخدم للأسلحة الإشعاعية و البيولوجية المسمّمة للأرض والمشوّهة للخلق بأنه خارج الأسرة الإنسانية ، يجب تعريفه بالمحافل الدولية.

قائمة المراجع والمصادر:

١. أحمد عبد الكريم سلامة، ١٤١٩هـ، حماية البيئة في الفقه الإسلامي، مجلة الاحمدية، العدد الاول .
٢. أحمد عبد الكريم سلامة، ، المبادئ والتوجيهات البيئية في اعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية، القاهرة. ١٩٩٤م .
٣. البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح - صحيح البخاري- مطبعة دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٨ هـ .
٤. البيهقي (ت ٥١٦ هـ)، السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت، ب - ت .
٥. الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)،الجامع الصحيح(سنن الترمذي)، تعليق المحدث محمد ناصر الدين الالباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١ .
٦. الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق ابراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ١٩٨٥م .
- ٧- مصطفى كامل مصطفى ، خواطر إسلامية في التوعية البيئية والسكانية، ١٩٩٩م.مطبعة نهضة مصر، القاهرة.
٨. ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .
٩. ابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ) ي بالآثار، المحلى، دار الكتب ،المحل العلمية، بيروت، ب - ت .

- ١٠- ابو داود (ت ٢٧٥ هـ)، سنن ابي داود، تعليق المحدث محمد ناصر الدين الالباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ب. ت .
- ١١- الرازي، مختار الصحاح، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ب. ت .
- ١٢- ابو زهرة، الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ب. ت .
- ١٣- الشاطبي، الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن ال سلمان، دار ابن عفان، الجيزة-مصر، ط١، ١٤٢١ هـ .
- ١٤- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ١٥- عبد السلام العبادي، ١٩٨٨م، الملكية في الشريعة الإسلامية - طبيعتها ووظيفتها وقبورها -، مكتبة الاقصى، عمان، ط١.
- ١٦- عبد المجيد عمر النجار، ١٤٠٩ هـ، قضايا البيئة من منظور اسلامي، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة- قطر، ١٩٩٩م، ط٣ .
- ١٧- ابو عبيد، الاموال، تحقيق محمد هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- ١٨- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م .
- ١٩- الفيومي (ت ٧٧٠ هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المطبعة العلمية، القاهرة، ط١، ١٣١٥ هـ .
- ٢٠- ابن قدامة موفق الدين ابو محمد (ت ٦٢٠ هـ)، المغني، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة، بلا .
- ٢١- القرضاوي، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١م، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة .
- ٢٢- قلعة جي وحامد صادق قينبي، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط١ .
- ٢٣- الكاساني (ت ٥٨٧ هـ)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- ٢٤- الالباني، سلسلة الاحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .
- ٢٥- ابن ماجه (ت ٢٧٥ هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣١٣ هـ .

- ٢٦- مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء الكتب العربية، بيروت، بلا. الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٦م
- ٢٧- محمد بكر اسماعيل، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، القواعد الفقهية بين الاصاله والتوجيه، دار المنار، القاهرة، ط ١ .
- ٢٨- محمد حسن ابو يحيى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، نظام الاراضي في صدر الدولة الإسلامية، دار عمار، عمان، ط ١ .
- ٢٩- محمد بن الحسن الشيباني، كتاب الاصل، تحقيق ابو الوفا الافغاني، مطبعة دار المعارف العثمانية، ط ١، بلا.
- ٣٠- محمد السيد ارناؤوط، ١٩٩٣م، الانسان وتلوث البيئة، الدار اللبنانية، القاهرة .
- ٣١- محمد شلتوت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، من توجيهات الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط ٧ .
- ٣٢- مسلم (ت ٢٦١ هـ)، الجامع الصحيح - صحيح مسلم -، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٤ هـ .
- ٣٣- ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م .
- ٣٤- د. قطب الريسوني ، المحافظة على البيئة من منظور إسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٢٩ م ٢٠٠٨ م دار ابن حزم
- ٣٥- النووي (ت ٦٧٦هـ)، روضة الطالبين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م . ابو يوسف، الخراج، دار المعرفة، بيروت، ب - ت.